المقتطف

الجزء الرابع من السنة الخامسة عشرة

١ كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٩١ الموافق ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٣٠٨

الارض والسكان

سمعتُ صراخ الاصغرين وامهم تفتش عن قوت لهم ليس يوجدُ
وكم في رياض الارض من حمَلٍ وكم بها فرخ طيرٍ لاعبٌ ومغرِّدُ
وزهرٌ له ثغرٌ تبسَّم ضاحكًا وعرْفٌ ذكا طيبًا ووجهٌ موردُ
واولادها يبكون لاقوت عندهم وليس لهم من راحمٍ يتودَّدُ
وانرابهم يكفي الكلابَ فنابُهم ويجنبهم مجدٌ وعزٌّ وسؤدُدُ(١)

أهذا نداء الانسان أوهذا شأنهُ في كل زمان ومكان يجوع ويعرى ووحش البر وطير السماء وسمك البحر اشبع منهُ وانعم بالاً . اجلس معنا على سطح النيل المبارك امام بلد طيب يخرج نباتهُ باذن ربهِ فترى النساء يردنَ الماء خفيفات الخطى متبسمات الثغور والاولاد يثبون على ضفة النيل كانهم صغار الظباء او افراخ الطيور والرجال يتولون زرعهم وغرسهم او يدخنون التبغ في اتياء الاشجار . والماء نمير والهواء عليل والسواقي تئن انين العاشق الولهان

والارض قد ابدت ازاهرَ طيبها وتسربلتْ بنضيرها وقشيبها

وكأن السعادة بسطت رواقها فوق جميع الناس والهناء ضرب اطنابهُ في كل القلوب ولكنَّ هذهِ الحال ليست شاملة كل بقعة في هذا القطر ولا كل المستظلين بسمائهِ الشاربين

(١) معنى هذهِ الابيات مأخوذ من مسز برون الشاعرة الانكليزية الشهيرة

من ماثو فبالامس كنا عند اصوان ورأينا رجال البرابرة والسودانيين واولادهم يرمون بانفسهم بين جنادل النيل ويقتحمون تيارهُ بارواحهم طمعًا بدرهم يتباعون به ما يسد الرمق وهم كذئاب الشفري التي قال فيها

مهلهلة شيب الوجوه كأنها قِداحٌ بكفّي ياسِرٍ تتقلقلُ
او الخشرم المبعوث خفّت دبرهُ محابيض ارداهنّ سامٍ معيّلُ
مهرتة فوهٌ كأنّ شدوقها شقوق العصي كالحاتٌ وبُسّلُ

وما وصل اليهِ هؤلاء الناس من ضنك العيش مع سعي مديريّة الحدود في اصلاح شؤونهم ومع ما هم متصفون بهِ من الاجتهاد والدأب انما سببهُ قلة الارض الصالحة للزراعة في مديريّة الحدود . ويخشى ان يصل كثيرون من اهالي هذا القطر الى هذهِ الحالة اذا بقيت الراحة مستتبة فيهِ سنين كثيرة . ويظهر في بادىء الامر ان هذا القول مخالف لما قلناهُ ونادينا بهِ المرار الكثيرة ولما ينادي بهِ نصراء التقدُّم في كل مكان ولكنهُ حقٌّ لا مرية فيهِ اذا لم يتلافَ الامر من الآن وهاك البيان

من الامور المقررة ان سكان هذا القطر واكثر الاقطار الشرقيّة لم يزد عددهم كثيرًا في السنين الاخيرة مع ان عدد مواليدهم بالنسبة اليهم اكثر من عدد المواليد في بلدان اوربا بالنسبة الى سكانها وشيوخهم يعمرون كما يعمر شيوخ غيرهم من الشعوب . وسبب ذلك كثرة وفيات الاطفال والصغار السن عمومًا لقلة الاعتناء بهم وبتطبيبهم اذا مرضوا ومن الامور المقررة ايضًا ان حسن الاعتناء بالصحة والنظافة والتطبيب يأول الى تقليل الوفيات فيزيد عدد السكان رويدًا رويدًا ولا تمضي سنون كثيرة حتّى يتضاعف عددهم فتضيق الارض بهم ويضطرون ان يحيوا غيرها من الارض الموات القليلة الخصب . ولا يلزم عن ذلك ان الارض التي تزرع الآن لا تقوم الاَّ بسكانها ولو اصلحت زراعتها لانهُ يُعلَم عن ثقة انها تقوم بهم وبمليونين او ثلاثة ملايين اُخرى وقد تقوم بخمسة او ستة ملايين اخرى ولكن قوّتها محدودة وزيادة السكان غير محدودة فلا بد من ان تضيق بسكانها وقتًا ما

وكل انسان يخلق قادرًا على العمل وكسب المعيشة ولكنهُ لا يستنزلها من السماء ولا يستخرجها من الماء بل يستمدها من خيرات الارض بيديهِ فاذا ضاقت الارض بهِ وقف مغلول اليدين . هذا ناهيك عن ان زيادة السكان وزيادة طلبهم للارض يزيد ثمنها واجارها فيزيد بذلك غنى الغني الذي يملك ارضًا فسيحة ويشتد فقر الفقير الذي لا ارض لهُ لانهُ لا يستطيع ابتياع الارض واذا هو استأجرها اضطرّ ان يدفع الجانب الاكبر من

غلتها ايجارًا لها واذا لم يستأجر ارضًا بل اجر نفسه لانسان آخر لم يدفع له هذا الاَّ اجرة قليلة لقلة ربحه من الارض وعليه فزيادة السكان تفضي الى زيادة فقر الفقراء منهم بضيقة الارض عليهم

واذا بقيت الراحة مستتبة كما هي الآن وبقيت الحكومة ناظرة الى مصلحة رعاياها وتعليمهم كثرت في البلاد ادوات العمل فعوضًا عن ان يسقي الزرع بالشادوف يسقي بآلة بخارية يديرها انسان واحد فتغني عن مئة شادوف ومئة رجل وعوضًا عن عجلج القطن بجلة تدار بالرجل بحلج بآلة بخارية يعمل بها بضعة رجال فتغني عن مئات من الرجال وعوضًا عن ان تنقل حاصلات الارض على الدواب تنقل في السكك البخارية فتغني عن الوف من الدواب وسائقيها وقس على ذلك جميع الاعمال الزراعية والصناعية. ونتيجة ذلك في حرمان كثيرين من العمل امرٌ ظاهر وهذا الحرمان غير ضائر ما دامت الارض واسعة على سكانها لان من لا يرفع شادوفًا ولا يسوق دابة يمكنه ان يعمل في الارض ويأكل من خيراتها وابواب الزراعة واسعة ولكن هناك نتيجة أخرى وهي ان الذي يسقي ارضه بآلة بخارية يقتصد اكثر ما كان ينفقه على الساقين فيزيد ربحه وتكثر اموالة فيكثر من ابتياع الاراضي وكلما زاد فدانًا على ارضه احرم رجلاً فقيرًا من الانتفاع بخيراتها. ويترف في المأكل والمشرب والملبس فيضطرّ ان يبعث بجانب من اموال البلاد الى البلدان الاجنبية لجلب اسباب الترف والملاذ ومفاد ذلك انه يأخذ الرزق من ايدي ابناء بلاده ويطعم به صنّاع الاجانب

ولا يطلق هذا الكلام على المخترعات والمكتشفات الجديدة التي لم تكن الناس مؤونة عمل كان موجودًا او التي اوجدت عملاً غير موجود كالنور الكهربائي والتلغراف ولا يطلق على المخترعات العمومية اذا اجيز للجميع ان يكتتبوا بها ويشتركوا في ربحها كسكة الحديد مثلاً بل يختص بالاختراعات العمومية التي تغني عن عمل اليدين

وجملة القول ان زيادة الامن والاهتمام في اصلاح شؤون الناس تؤول الى زيادة السكان وزيادة غنى الاغنياء وهذان الامران اي زيادة السكان وزيادة غنى الاغنياء يدعوان الى ضيقة الارض على سكانها والى امتلاك الاغنياء للجانب الاكبر منها فلا تعود خيراتها كافية لسكانها لان الاراضي الوسيعة التي يمتلكها الاغنياء لا تغل كالاراضي الضيقة التي يمتلكها الفقراء

وهذه المسئلة من اهمّ المسائل التي اشغلت افكار الاقتصاديين في عصرنا ودخل

في مضمار المناقشة فيها كبار الفلاسفة ورجال السياسة كسبنسر وغلادستون . ويظهر لنا انها تحل بهاتين الواسطتين الاولى ان تتداخل الحكومة في امر ابتياع الارض فتحفظ للفقراء جانباً من ارضهم يقوم بمعاشهم ولا تسمح بابتياعه منهم او تحدّد للارض اجرة معلومة كما تحدد اسعار المبيعات في المدن . والثانية ان يزيد اهتمام الفضلاء في حث الاغنياء على الانفاق من اموالهم في عمل البر . وقد تدارك مشترعو الاديان ذلك فامرت الديانة الموسويّة بترك الارض للفقراء كل سنة سابعة وبترك زوايا الحقول لهم واجازت لهم ان يأكلوا الى الشبع من كل حقل يمرّون به . وامرت الديانة المسيحيّة بالتصدق على الفقراء والمساكين والديانة المحمديّة بتزكية الاموال والمقتنيات والانفاق في سبيل البر والاحسان . وخير لذوي السعة ان ينفقوا من سعتهم ولا يتركوا اموالهم الوفيرة لاولادهم فتقودهم الى الترف والاسراف وما ينتج عنهما من الشرور

الاستقلال والمتابعة

الناس رجلان رجل مستقلّ في افكاره وافعاله يخطّ لنفسه خطة بعد طول البحث وإعمال الفكرة ويمشي عليها غير متابع احداً . ورجل لا يكلف نفسه مشقة البحث والتحري فيمشي على الخطة التي اختطها له غيره ويتابع من تقدّمه في افكاره وافعاله . والفرق بين الشعوب المرتقية والمنحطة يتوقف على ما فيها من الرجال المستقلين والمتابعين فاذا كثر فيها المستقلون المبتكرون فهي في ميدان الارتقاء والتقدم واذا قلّ فيها عدد هولاء وزاد عدد المتابعين وقفت اولاً على حالة واحدة ثم اخذت تتقهقر . ويصدق ذلك على كل مطلب من المطالب . هاك صناعة الانشاء في اللغة العربيّة فانه لما كانت الامم المتكلمة بالعربيّة مستقلّة في صناعة الانشاء مبتكرة فيها كانت جارية في مضمار التقدم راقية سلّم النجاح ثم لما جعل كتابها يقتصرون على المتابعة والتقليد اخذت تتقهقر وتضعف وقس على ذلك جميع اللغات . وهاك ايضاً صناعة النقش التي اشتهر فيها المصريون من قدم الزمان فانه لما كانت هذه الصناعة مرتقية مطلقة من قيود التقليد كانت في البلاد كلها راقية مراقي النجاح ثم لما وقفت هذه الصناعة عن الارتقاء والابتكار وصار الصنّاع يتابعون من تقدمهم ويحذون حذوه ولا يحيدون عن خطوه قيد انملة ولا يسرة وقفت تتقدم البلاد كلها